
Journal of Alasmarya University
Volume 11, June 2009
مجلة الجامعة الأسمرية
المجلد الحادي عشر، يونيو 2009

الأوضاع السياسية والثقافية في ليبيا وانعكاساتها على الشيخ عبد السلام الأسمر وطريقته الصوفية (880هـ/1475م - 981هـ/1573م)

د. أمحمد سعيد الطويل*

تعد فترة الشيخ عبد السلام الأسمر الفيتوري (880/1475-981هـ/1573م) بداية عصر حديث وزوال عصر وسيط على مستوى شعوب البحر المتوسط على الأقل[1]، بالإضافة إلى كونها تمثل بداية فصل جديد في تاريخ مسلمي الشمال الإفريقي عامة، ومسلمي طرابلس وبرقة (ليبيا الحالية) خاصة، فقد شهدت هذه الحقبة الطويلة نسبيا ثلاث مراحل سياسية مختلفة كل الاختلاف. فما هذه المراحل؟، وما هي انعكاساتها على الشيخ عبد السلام الأسمر وطريقته الصوفية؟.

المرحلة الأولى (868/1463 - 916هـ/ 1510م)

بالرغم من إن طرابلس بوصفها مدينة ظلت مرتبطة بشكل أو بآخر بالدولة الحفصية (626/1228-981هـ/1574م)[2] في أغلب الأحيان، إلا أنها استطاعت

* جامعة السابع من إبريل.

1- لقدت ظهرت عدة نظريات حول تاريخ نهاية العصور الوسطى، وبداية العصور الحديثة، واقرب تلك النظريات إلى الواقع والى الأحوال السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية التي شهدتها منطقة البحر المتوسط وقتذاك أن العصور الوسطى تنتهي بالقرن الخامس عشر الميلادي. انظر: على سبيل المثال جوزيف نسيم: تاريخ العصور الوسطى، دار النهضة العربية، بيروت، ط 2، 1987 ص18-32

2- أصل بني حفص من قبيلة هنتاته، وهي من أعظم قبائل المصامدة، كان أول أولاتهم الشيخ عبدالواحد =

سنة 1463 الحصول على استقلالها السياسي بعد حروب وقطيعة استمرت حوالي ثلاث سنوات[3]، استؤنفت بعدها العلاقات التجارية مع طرابلس، وبقية المدن (الليبية) الأخرى التي أصبحت تمثل جمهوريات مستقلة على غرار المدن الإيطالية آنذاك، حيث سعت هذه المدن إلى تنمية مواردها الاقتصادية، فحققت خلال الفترة المشار إليها أعلاه الكثير من اليسر والرخاء[4]، فقصدها التجار من الشمال والجنوب، ونقلوا إليها بضائعهم للمبادلة، وكان تجارها يكسبون الشيء الكثير دون دفع ضرائب أو أية مكوس أخرى[5]، فغياب السلطة المركزية القوية في هذه الفترة قد ساعد هذه الجمهوريات الصغيرة على المتاجرة مع مختلف الجهات الإسلامية والأوروبية مباشرة ودون وسيط، فقد كانت مصراته[6] مرتبطة بتجارة واسعة مع البندقية وجنوا، ومصر[7]، كما اشتهرت زليتن[8] بتجارتها النشطة مع صقلية، ومصر[9]. بالإضافة إلى طرابلس، واجدابيا، وبنغازي التي كانت على اتصال شبه دائم بصقلية ومصر[10]، ويصف أحمد النائب ما تمتعت به المدن الليبية في هذه المرحلة بقوله: « وأخذت السكينة في تعاطي أسباب الثروة والغناء من التجارة، والزراعة فنمت زراعتهم، وربحت تجارتهم، واقبلوا عن أنواع الملذات، واستطابوا

=

بن أبي حفص، وحكمت الدولة الحفصية المغربين الأدنى والأوسط. انظر: أبو عبدالله القاسم الرعيني القيرواني المعروف بابن (أبي دينار) المؤنس في تاريخ أفريقيا وتونس، تحقيق محمد شمام، المكتبة العتيقة، تونس، 1967، ص130

3- انظر: أمين توفيق الطيبي: العلاقات بين جزيرتي صقلية وجربة، مجلة البحوث التاريخية، مركز جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي، طرابلس، عدد (1)، 1984، ص 139 -163

4- أحمد بك النايب: المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب، مكتبة الفرجاني، بدون تاريخ، ج 1، ص75.

5- نفسه ص 75

6- تقع مدينة مصراتة على شاطئ البحر، وتبعد عن مدينة طرابلس 200 كيلو متر، اشتهرت بثرواتها وتجاراتها الواسعة منذ نهاية العصور الوسطى. انظر: الطاهر أحمد الزاوي، معجم البلدان الليبية، مكتبة النور، طرابلس، 1968، ص 318

7- الحسن بن محمد الوزان (ليو الأفريقي)، وصف إفريقيا، تعريف عبد الرحمن حميدة، جامعة محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، بدون تاريخ، ص 482

8- زليتن: اسم مدينة ساحلية تبعد عن طرابلس بحوالي 158 كيلومتر شرقا، ويرجح أن اسمها محرف عن القبيلة (البربرية) هواره (يضليتن). انظر: نفس المرجع، ص 170 -171

9- الحسن الوزان، المصدر السابق ذكره، ص 516

10- نفسه، ص483

خفـض العـيش، وتـركت الحامـية الـسلاح حتـى كـان ذلـك سبباً لطمع العدو ...»[11] الزاحف من وراء البحر تحت راية الصليب.

إن هـذا الاستقلال السياسي والرخاء الاقتصادي كان أهم ما يميز سكان طرابلس وبـرقة طـول تـاريخهم الوسيط تقريباً، فقد أكد ذلك حسن الوزان (ليو الافريقى) بقوله: «لعـل مـا يميـز عـرب هـذه الـبلاد الممـتدة مـا بين طرابلس و درنة وما جاورها، وفي الـصحراء الممـتدة بـين القاهـرة وجـبال غـريان ووادى الآجـال ومـا بيـنهما من الأقاليم وواحـات نـزوع أهلـها إلى التحـرر مـن حكـم الفرد والجماعة، وإتباعهم نظاماً مباشراً لحكـم أنفـسهم في أغلـب الأحـوال، وبتعـبير اقـرب إلى الفوضـى منه إلى النظام»[12]، ويـضرب حـسن الـوزان مـثالاً علـى ذلـك بمدينة مسلاتة التي «يعيش أهلها في حرية ويختارون رئيساً من أنفسهم يقوم مقام الأمير، ويدير شؤون السلم والحرب ...»[13].

في هـذا الجـو الديمقراطـي والـرخاء الاقتصادي ولد يوم الاثنين الثاني عشر من ربـيع الثانـي سـنة (880 هــ -1475م) الـشيخ عـبد السلام بن سليم بن محمد الفيتوري المـشهور بالأسمر[14]، وتولى تربيته وتعليمه عمه أبو العباس أحمد بن محمد الفيتوري بعـد وفـاة والده[15]. ثم انتقل لمواصلة تعليمه في مصراتة على يد الشيخ أحمد زروق[16]، لينـتقل بعدها إلى زاوية الشيخ عبد الواحد الدوكالي[17]، حيث تحصل على إجازته بعد سبع سنوات[18] ليدخل بعدها معترك الحياة العملية حتى لو كان هو نفسه كارهاً لذلك،

11- أحمد بك النايب، المصدر السابق ذكره، ص175

12- نقلا عن أحمد محمد الأصبحي، تداعيات رحالة في زمن الانكسار، دار البشير ومؤسسة الرسالة، عمان، 1996، ص 208

13- نفسه، ص 209

14- لقب الشيخ عبدالسلام بالأسمر لمبيته الليالي سمرا في طاعة الله، انظر: محمد بن عمر مخلوف (اختصار وتنقيح) روضة الأزهار ومنية السادات الأبرار في مناقب سيدي عبدالسلام الأسمر، مكتبة زهران، القاهرة، بدون تاريخ، ص77

15- نفسه، ص 81

16- مصطفى عبدالرحيم أبوعجيلة، زاوية أحمد زروق بمصراته، دار الرياح للطباعة والنشر، مصراتة، 2001، ج1، ص 50

17- محمد مخلوف، المصدر السابق ذكره، ص82

18- نفسه، ص82

فقد رفض شيخه الدوكالي استمراره معه، كما رفضه جميع المشايخ الذين عرض عليهم نفسه، والبالغ عددهم ثمانين شيخاً[19]. لماذا يا ترى؟.

إن ندرة المصادر التي تناولت سيرة الشيخ عبد السلام الأسمر تجعلنا مجبرين على الأخذ بما جاء في كتاب تنقيح روضة الأزهار[20] الذي نعتقد أنه يحتاج إلى دراسة وتحقيق، ومقارنته بغيره من المصادر إن وجدت، أو على الأقل إخضاعه للنقد الظاهري[21]، والباطني[22] أسوة بالدراسات المشابهة حتى يمكن الوثوق به، فالشيخ كريم الدين البرموني[23] يعلل سبب رفض الشيخ الدوكالي وبقية المشايخ لاستمرار الشيخ عبد السلام الأسمر في خدمتهم والأخذ عنهم هو «لاطلاعهم على علو مقامه»[24]. وهنا طبيعة البحث تحتم علينا أن نتساءل: هل استطاع الشيخ عبد السلام الأسمر حرق المراحل والرتب الصوفية وبلغ (الغواثة أو القطبانية) مباشرة ودون المرور ببقية الرتب[25]. الأمر الذي أقنع شيوخه بأنه أصبح أعلى مقاماً منهم، أو على الأقل مساوياً لهم، ومن ثم يجب أن يستفيد منه الناس –كما أورد مصدرنا–[26]. أو أن سبب الرفض هو بدعته التي

19- محمد مخلوف، المصدر السابق ذكره، ص83

20- لقد اعتمدنا على الملخص الذي سبق أن أشرنا إليه وهو أيضاً يحتاج إلى دراسة وتحقيق.

21- من الأساليب المتبعة في البحث التي تهدف إلى التحقق من شخصية صاحب المخطوط ومصدره ومكان وزمان تدوينها ... إلخ انظر: محمد عبدالكريم الوافي، منهج البحث في التاريخ، جامعة قاريونس، بنغازي، 1990، ص127 -136.

22- يهدف النقد الباطني إلى معرفة روايات شهود العيان المباشرة، وغير المباشرة. انظر: نفس المرجع، ص136.

23- كريم الدين البرموني ولد في مصراتة سنة 893 هـ من أب مصري وأم مصراتية، تعلم في بلدته ثم انتقل إلى مصر واخذ عن علمائها، ثم رجع إلى وطنه واجتمع بالشيخ عبدالسلام الأسمر ولازمه بعد اختلاف كبير بينهما في السابق. انظر: الطاهر أحمد الزاوي، أعلام ليبيا، مؤسسة الفرجاني طرابلس، ط 2، 1971، ص 325 -326

24- محمد مخلوف المصدر السابق ذكره ص 83.

25- لقد جاء في روضة الأزهار ما يلي «قد علمت أن مولانا عبد السلام بلغ القطبانية العظمى أعني الغواثة غير أنه بلغ علينا بيان الرتب التي حصلت له قبل ذلك ... قال استنجب الشيخ عشرة سنين واستنجب خمس سنين ثم انتقل إلى البدالة ومكث فيها سبع سنين، ومنها انتقل إلى القطبانية ومكث فيها اثني عشر عاما، ومنها انتقل إلى الوتادة ومكث فيها ست سنين ثم إلى الغواثة». انظر: محمد مخلوف المصدر السابق ذكره ص106

26- نفسه، ص83

ابتدعها وهي السماع بالدفوف[27] والتي أودت به إلى السجن بزاوية شيخه الدوكالي[28]، كما أثارت هذه البدعة استياء العديد من مشايخ عصره، منهم على سبيل المثال: الشيخ سالم الحامدي[29]، والشيخ سعيد التطاوني[30]، والشيخ سالم بن طاهر[31]، والشيخ سالم بن مبارك وابن عمه[32]، وغيرهم من المشايخ والفقهاء الذين رأوا إن الله «لا يعبد بالشطح، ولا بالردح، ولا بالدفوف ولا بالكفوف» على حد تعبير شيخه الدوكالي[33].

لقد ساعدت الأوضاع السياسية السائدة في (ليبيا) آنذاك شيخنا في الترويج لطريقته رغم معارضة شيوخ عصره له، وما كان عليه عند اشتداد المعارضة إلا مغادرة المكان إلى أخر، ليس ببعيد عن سكناه، فتنقل بين ساحل الآحامد، وطرابلس، والزاوية الغربية، وغريان، وقلعة سوف الجين ببني وليد، وتاورغاء ومصراتة[34]. وهو بهذا قد استفاد من عدم وجود سلطة قوية كان يمكن أن تتخذ منه موقفاً صلباً كما حدث مع غيره من المشايخ المعاصرين له الذين اتهموا بالزندقة، وأبعدوا إلى خارج أوطانهم من أمثال: الشيخ فتح الله أبوراس القيرواني الذي فر لاجئاً إلى طرابلس هرباً من تطبيق حكم الإعدام عليه[35]، وكذلك الشيخ أبو راوي الفحل[36]، والشيخ أحمد بن عبد الله الرشيد المعروف بأبي تليس[37] وغيرهم من الذين غادروا أوطانهم خوفاً على حياتهم.

ومن الجدير بالذكر أن اليهود قد استغلوا هذه الأوضاع السياسية السائدة في المدن (الليبية) وأسسوا معبداً لهم في مدينة زليتن، سيكون مع مرور الزمن من أهم

27- السماع مسألة حرمه بعض الفقهاء وربطوا بينها وبين الطقوس الوثنية ورأي الصوفية فيه أداة لتحريك الشعور والعاطفة بالموسيقى والغناء والرقص ووسيلة للجذب والوجد. انظر: علي فهمي خشيم، أحمد زروق والزروقية، المنشأة الشعبية للنشر والتوزيع والإعلام، طرابلس، ط2، 1980 ص313

28- محمد مخلوف المصدر السابق ذكره ص88

29- نفسه، ص86

30- نفسه، ص86

31- نفسه، ص86

32- نفسه، ص107

33- نفسه، ص84

34- نفسه، ص 90 -100

35- نفسه، ص222

36- نفسه، ص222

37- نفسه، ص 222

معابدهم في الشمال الإفريقي، وأطلقوا عليه (كنيس صلاة أبي شائف نسبة إلى أحد كبار حاخامات اليهود سيمون بارخاري الطرابلسي) (38).

وعلى أية حال، هكذا كانت الأوضاع السياسية في (ليبيا) نهاية القرن الخامس عشر، وحتى العقد الأول من القرن السادس عشر الميلادي، الأمر الذي جعلها محط أنظار الطامعين فيها من الأعداء القادمين من وراء البحر في صورة تجار جواسيس ابرموا المعاهدات التجارية(39)، وأسسوا الفنادق(40) أو الخانات التي كانت أشبه بالمستوطنات الأوروبية في المدن المغربية، فكان كل فندق أو خان عبارة عن استراحة للتجار، وكذلك مخزن للبضائع، وفي داخله توجد كنيسة ومقهى، وفرن، ومقبرة وحمامات(41)، وكان كل فندق يدار بواسطة قنصل(42).

لقد أصبحت هذه المستوطنات تشكل خطراً على المدن الإسلامية المغربية مثل: طرابلس وتونس ... إلخ، فقد لاحظ حسن الوزان ذلك أثناء زيارته لتونس فقال: «هنا في تونس يستفحل خطر تجار الفرنجة الذين غدوا طبقة كبيرة ومؤثرة فقد تحولت مراكز تجمعهم المعروفة بالفنادق إلى مؤسسات اقتصادية وعسكرية تهدد ما تبقى للدولة الحفصية من وحدة سياسية انحصرت في حاضرتها تونس، وأوشكت إن تتحول إلى مسيحية»(43). فإذا كان هذا حال تونس فإن حال مدينة طرابلس وبقية المدن (الليبية) في بداية القرن السادس عشر كان أسوء من ذلك، الأمر الذي جعلهم هدفاً للحملات الإسبانية العسكرية البحرية، فهل يستيقظ مشايخنا وإتباعهم من هذه الغفلة، ويدعون إلى

38- سعدي إبراهيم الدراجي، زليتن دراسة في العمارة الإسلامية، منشورات القيادات الشعبية زليتن، 2003 م، ص44

39- على سبيل المثال وقَعت معاهده بين طرابلس وصقلية سنة1480 تم بموجبها تعيين قنصل مقيم لصقلية بطرابلس. انظر: شارل بيرو، ليبيا منذ الفتح العربي حتى 1911، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلام، طرابلس، ط2، 1983، ص62

40- انظر: أمحمد سعيد الطويل، العلاقات السياسية والتجارية بين ليبيا ودول غرب أوروبا المتوسطية 1795-1832، رسالة دكتوراه في التاريخ الحديث، إشراف عمر بن خروف، قدمت إلى قسم التاريخ جامعة الجزائر 2007 م مجازة ولم تنشر، ص 13.

41- نفسه، ص14

42- نفسه، ص15

43- نقلا عن محمد أحمد الأصبحي، المصدر السابق ذكره ص 74

الجهـاد؟، فـإذا كـان العذر قد يلتمس للعامة، فإن العلماء والفقهاء ليس لديهم عذر بدون شك.

المرحلة الثانية (916هـ/1510م -958 هـ/1551م)

بالـرغم مـن اسـتعداد سـكان مديـنة طـرابلس للـدفاع عـن مدينـتهم بإصـلاح التحـصينات، واسـتدعاء فرسـان الدواخل لحراسة مداخل ومخارج المدينة[44]، لكن هذه الاستعدادات لم تمنع الأسبان وحلفاءهم من النزول إلى البر يوم 1510/7/25م رغم شدة المقاومـة. ويـصف مار مول هذه المعركة بقوله: «بدأ الهجوم على المدينة حوالي الساعة التاسـعة صـباحاً، شارك فيه من جانب النصارى ما يزيد على أحد عشر ألف جندي، غير أن الـسكان استبـسلوا في الدفاع عن المدينة، فكان الجرحى والقتلى يتساقطون بكثرة من الجانـبين في خضمّ المعركة ... وخلال الليل اقتحم المسيحيون المساجد وقتلوا أكثر من ألفـين من المسلمين واستسلم حماة الأبراج»[45]. ويضيف «لقد فتك النصارى بأكثر من سـتة آلاف طرابلـسي رمـوا بعـض جثثهم في آبار المساجد، وبعضها في البحر، وأحرقوا البعض الآخر، ثم أسروا أكثر من خمسة عشر ألف نسمة ...»[46].

لقد كان طبيعياً والحالة هذه أن تنتقل حركة المقاومة إلى الدواخل، لإعادة تنظيم الصفوف ومهاجمة الأسبان لتحرير المدينة من سيطرتهم، والثأر لأولئك الشهداء.

يجـب الاعـتراف في الـبداية بأن العالم أو الفقيه يمثل مرآة عصره الثقافية، وبدلاً مـن أن يتجه علماء الأمة وفقهاؤها إلى توعية إخوانهم المسلمين، واخذ العبرة من ملوك الطوائف بالأندلس، والاستعداد لمثل هذا التهديد الخارجي، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ﴾ [الـتوبة: 123]، وقـول الرسـول ﷺ: «لا هجـرة بعـد الفـتح، ولكـن جهـاد ونـية، وإذا استنفرتم فانفروا»[47]. فإننا نلاحظ ضعف تأثيرهم في العامة، وكذلك في أصحاب القرار، ويبدو أن هذه اللعنة مصاحبة لهذه الأمة طـوال تاريخها تقريباً. وشيخنا لا يخرج عن هذا الإجماع فمن خلال رسائله التي عدنا

44- أمحمد سعيد الطويل، المرجع السابق ذكره، ص16

45- لويس ديل مارمول كربخال، أفريقيا، تعريب محمد حجي وآخرين، دار نشر المعرفة، الرباط، 1984، ج3، ص124

46- نفسه، ص124

47- السيد سابق، فقه السنة، دار الفتح للإعلام، القاهرة، 1412هـ ج3، ص130

إلـيها لم نجـد دعـوة صـريحة للجهـاد، ولا في وصـيته بابـا يؤكد عليه[48]، بل نجد في طـريقته الـصوفية حـثاً علـى المـزيد مـن الركود والتقوقع داخل الزوايا، وفي الخلوات، وذكـر الأوراد، والإيمان بالكرامات، والخوارق، والاعتماد على الشطح الهيستيري والذكر الغنائي، والموسيقي، والرقص، والتنبؤ بالغيب[49] وغير ذلك من الوسائل التي لا يقرها غالبـية المـسلمين، ومعالجـة داء الأمـة بالـدواء الـناجع، وهـو التمـسك بكتاب الله وسنة رسـوله، وتحريـر الفكـر الإسـلامي مـن هـذه الـشوائب، والدعـوة إلى مواجهة الأخطار المحدقـة بالمجـتمع الإسـلامي في تلـك الفـترة علـى الأقل. ويبدو أن شيخنا وأمثاله لم يـسمعوا بمـرثية أبي الطيب صالح بن الشريف الرندي الشهيرة التي كانت ومازالت تعتبر حتى اليوم من أروع المراثي القومية، وأبلغها تأثيراً في النفس، والتي قال فيها:

يا راتعيـن وراء البحـر فـي دعـة   لهـم بأوطانهـم عـز وسلطـان
وحامليـن سيـوف الهنـد مـرهفـة   كأنهـا في ظـلام النقـع عقبـان
أعندكـم نبـأً عـن أهـل أندلـس   فقد سرى بحديث القـوم ركبـان
يـا رب أم وطفـل حيـل بينهـما   كمـا تفـرق أرواح وأبـدان
وطفلة مثل حسن الشمس إذا طلعت   كأنمـا هـي ياقـوت ومرجـان
يقودهـا العلـج للمكـروه مكرهـة   والعيـن باكيـة والقلـب حيـران
لمثـل هـذا يـذوب القلـب من كمـد   إن كان في القلب إسلام وإيمان
كما يستغيث بنا المستضعفـون وهـم   أسرى وقتلـى فمـا يهتـز إنسان
مـاذا التقاطـع بينكـم   وأنتـم يـا عبـاد الله إخـوان[50]

والحقـيقة أن هذه القصيدة لا ترثي مدن الأندلس وسكانها المسلمين فحسب، بل ترثي كل المدن المغربية التي وقعت تحت السيطرة الإسبانية من سبتة وحتى طرابلس[51]. فهل من مجيب؟.

إن الـشيخ عـبد الـسلام الأسمـر وجـد في عصر اتسم بالتراجع الثقافي، والهزيمة

48- عبدالسلام الأسمري الفيتوري، الوصية الكبرى، مكتبة النجاح، طرابلس، 1976، ص 132/3

49- انظر: إسماعيل العربي، معجم الفرق الإسلامية على حرف المعجم، دار الأفاق، 1993، ص282

50- راجع هذه القصيدة كاملة لدى عبدالله محمد الزيات، رثاء المدن في الشعر الأندلسي، جامعة قاريونس، 1990، ص 746 -748

51- حول الهجمة الإسبانية على شمال أفريقيا. انظر: مارمول المصدر السابق ذكره، ص36 -96

السياسية، ومن هنا نراه يدعو إلى السكينة والمهادنة، فقد جاء في إحدى رسائله قوله: « عليكم بالتسليم لكل بار وفاجر، وجاهل ومعاند، وجاحد وظالم لأن مبنى طريق التصوف كلها على التسليم والتصديق، كما أن مبنى الفقه على البحث والتحقيق » [52]. وبالإضافة إلى ذلك فإن جميع الآيات القرآنية التي استشهد بها في رسائله لا تتناول الجهاد أو الإعداد للحرب والقتال[53] لا من قريب ولا من بعيد. وفي مقابل ذلك نجد شيخنا يؤكد الفكرة القائلة إن لأولياء الله والمتصوفة عموماً قوة إلهية[54]. وهي الفكرة التي ترسخت في أذهان العامة مع مرور الزمن، واستمرت حتى وقت قريب.

إن ظهور مثل هذه الفرق الصوفية في الفكر الإسلامي في بداية القرن الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين يشبه على الأرجح ما شهدته المسيحية في العصور الوسطى[55]، حيث انتقلت هذه التأثيرات الرهبانية إلى المسلمين زمن الحروب الصليبية، فتحول الفكر الصوفي من فكرة سامية إلى صورة عكسية استغل فيها بعض المتصوفين الجماهير، وحولوهم من عبادة الله إلى عبادة المتصوفة الأولياء، ونشروا القدرية والتواكلية والسلبية، والاعتماد على الآخر والتسليم بالواقع كقدر محتوم من المستحيل دفعه والتقليل من شأن الحياة الدنيا، وتمجيد الفقر والحرمان، وتعذيب الجسد، ونشر الفكر الغيبي والخرافي[56].

ومهما يكن من أمر فإن ما ذكر أعلاه لا يعني أن شيخنا والمتصوفة عموماً خلال هذه الفترة، والفترات اللاحقة كان عارياً من الفضائل والحسنات، فدورهم في التعليم من خلال زواياهم لا يستهان به، وتأكيدهم على مكارم الأخلاق وحسن المعاملة، ومقابلة السيئة بالحسنة لا يحتاج إلى بحث وتقص، وخصوصاً في وصيته الكبرى[57].

52- انظر: رسالته إلى أصحابه بمدينة طرابلس لدى مصطفى عمران رابعة، رسائل الأسمر عبدالسلام إلى مريديه (جمع وتحقيق ودراسة) دار المدار الإسلامي، بيروت، 2003 م، ص228

53- انظر فهرس الآيات القرآنية في نفس المصدر، ص 405 -409

54- انظر: محمد مخلوف، المصدر السابق ذكره، ص 101

55- لوثروب ستودارد الأمريكي: حاضر العالم الإسلامي، دار الفكر العربي، بدون تاريخ، ج2، ص394

56- انظر: عيسى رمضان القبلاوي: بدايات التخلف في الوطن العربي أمثلة تطبيقية من ليبيا، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس، 2005 م، ص 316

57- انظر: الوصية الكبرى ص 616 وص 20 -22

المرحلة الثالثة (958هـ/1551م -981هـ/1573 م)

من حسنات الدولة العثمانية التي يجب أن يذكرها لها التاريخ حماية سكان الشمال الإفريقي من السيطرة المسيحية والتنصير، فقد كان هدف الأسبان يتلخص في القضاء على المسلمين تمهيداً لإقامة دولة تعتمد بالدرجة الأولى على المسيحيين القادمين من أوروبا، كما تشمل هذه الخطة محاصرة مسلمي الشمال الإفريقي واحتلال مدنه الهامة المطلة على البحر المتوسط وتحويلها إلى المسيحية[58].

وتحقيقاً لهذه الاستراتيجية واصل الأسبان حملاتهم البحرية على الموانى الإسلامية الإفريقية من المحيط حتى طرابلس، مدفوعين بحقد ديني موروث، ورغبة أكيدة في نشر المسيحية عملاً بوصية الملكة القشتالية إيزبيلا[59]. التي كانت ترى في هذا العمل إرضاء للرب، أو على الأقل أرضاءً للكنيسة التي تبارك هذا العمل وتشجعه حيث اعتبرت عملية احتلال طرابلس سنة 1510م بداية مشجعة لتحقيق هذا الحلم. لكن الدولة العثمانية استطاعت تصفية الوجود المسيحي وطرد منظمة الفرسان من طرابلس[60] يوم 1551/8/4م[61]، وبذلك أصبحت الولاية العثمانية الثانية في شمال إفريقيا بعد الجزائر. ولما كان الحكام الجدد ينتمون إلى طائفة الانكشارية[62] اتبعوا سياسة صوفية في ولاياتهم بحكم انتمائهم إلى الطريقة البكتاشية المنبثقة عن الطريقة القادرية[63] وقد

58- انظر حول هذا الموضوع: أحمد توفيق المدني: حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا، 1492-1792م، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، ط3، 1984 م، ص 93 -193

59- الملكة إيزابيلا أخت هنري الرابع وخليفته على العرش تولت حكم قشتالة سنة 1474 وتزوجت بفردناد سنة 1469. انظر: وليام لانجر، موسوعة تاريخ العالم، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1962، ج3، ص765

60- حول تاريخ منظمة الفرسان وحكمها لطرابلس ومالطا. انظر عمر الباروني، الأسبان وفرسان القديس وحنا بطرابلس، مطبعة ماجي، بدون تاريخ، ص23 وما بعدها

61- انظر: شارل بيرو، المصدر السابق ذكره، ص 96 - 111

62- الانكشارية تعني الجيش الجديد الذي استخدمه السلطان العثماني أورخان 1326، وكان يتكون من أبناء النصارى في البلاد المفتوحة يؤخذون صغارا كجزية، ويربون قرب السلطان تربية دينية عسكرية خاصة، واستمروا حتى قضى عليهم السلطان محمود الثاني سنة 1826. انظر: عبدالعزيز الشناوي، الدولة العثماني دولة إسلامية مفترى عليها، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1992، ج1، ص471 -558

63- البكتاشية طريقة صوفية منبثقة عن القادرية أسسها محمد بكتاش المولود في نيسبور سنة 738هـ/ 1337م، =

كانـت هذه الطريقة أي البكتاشية تضم بين صفوفها كبار رجال السياسة والدولة العثمانية مدنيين وعسكريين، رغم طقوسها المنافية للإسلام(64).

لقـد أحـاط العثمانيون الطرق الصوفية عموماً بالرعاية ومظاهر الاحترام، ورفعوا مـن شـأنهم في نظـر العامـة، ولم يقـصروا في مجـازاة خـدماتهم بسخاء، ولا في عقاب مظاهر المعادة بقسوة(65). وكان من نتيجة ذلك انتشار هذه الطرق في أغلب مدن وقرى (ليبـيا) إبان العهد العثماني، ولا نبالغ إذا قلنا: كان لكل مدينة وقرية شيخها ووليها الذي تتـبرك به وتنحر له الذبائح سنويا حتى يأتي الموسم خصبا ويعم الرخاء، وقد استمرت هذه العادة حتى وقت قريب(66).

وتمـشياً مـع هـذه الـسياسة الـصوفية للـولاة العثمانيين تقرب مراد أغا (1551-1553م)(67) مـن الـشيخ عـبد السلام الأسمر وعمل بنصيحته فأوقف جميع أملاكه على بـناء المـساجد والـزوايا والكتاتيب(68) وبذلك بدأ نجمه في الصعود، ونال شهرة واسعة بـين الأوسـاط الـشعبية مـع مـرور الـزمن، حتى أصبحت سيرته أسطورة نسجت حولها مختلف الحكايات التي ضخمتها العامة، وسخرتها السلطة لخدمة أغراضها حتى تكسب هـذه القاعدة الشعبية العريضة لصفها، ومن ثم القضاء على المناهضين للحكم العثماني، والمطالـبين بوضـع حـد لـسياسة الجـور والظلم للولاة، ويبدو أن زعماء هذه الحركات المناهضة للحكم العثماني قد استخدموا نفس أسلوب السلطة الديني من خلال اتخاذهم شـعار المهـدي الموعود(69)، الذي جاء لإنقاذ الجماهير من العسف والقهر ليحل محلها العدل والمساواة.

= وترتبط أيضاً بالنقشبندية والخلوتية. انظر: إسماعيل العربي المرجع السابق ذكره، ص 69 -70.

64- لقد أخذت البكتاشية بعض عناصرها من النصارى مثل شرب الخمر والاعتراف للشيخ بالذنوب ويتلقون الغفران على يديه ... إلخ، انظر نفس المرجع، ص 70

65- الفرد بيل، الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي، تعريب عبد الرحمن بدوي، دار ليبيا للنشر، طرابلس، 1969م، ص 430

66- لقد استمرت هذه العادة متبعة في عدة مناطق من ليبيا حتى بداية النصف الثاني من القرن العشرين حيث تراجعت كثيرا وتكاد تنعدم اليوم.

67- حول فترة حكم مراد أغا للبلاد. انظر: شارل بيرو، المصدر السابق ذكره، ص117

68- نفسه، ص117

69- عيسى رمضان القبلاوي: المرجع السابق ذكره، ص322

وبالرغم من أن مؤرخ سيرة شيخنا يؤكد بأن جميع معارضيه قد اقتنعوا بطريقته[70] إلا أن الرحالة العياشي (1068هـ-1685م) يؤكد بأن بدعة السماع بالدفوف مازالت مستهجنة من أتباع زاوية الدوكالي[71]. مما يؤكد استمرار وجود مقاومة لفكرته، حتى وان كانت هذه المقاومة تضعف بمرور الزمن، ومع تزايد التراجع الثقافي في طرابلس وبرقة طوال العهد العثماني والقرمانلي تقريبا، ولولا الطبيعة البدوية الغالبة على السكان، وبعدهم عن المؤثرات الخارجية لتراجعت اللغة العربية والثقافة الدينية على بساطتها، وقد أكد احد الرحالة أن عرب برقة أفصح لساناً من غيرهم[72] مما يؤكد ذلك.

إن شدة ولع السكان على مختلف فئاتهم بالأولياء وحرصهم على زيارة أضرحتهم للتبرك بها وأخذ العلم والدعاء من حفدتهم، دفعت بالشيخ عبد السلام بن عثمان التاجوري[73] إلى عمل كتيباً عدد فيه أهم المزارات الواقعة بين زواغة (صبراته الحالية) في الغرب، ومصراته في الشرق، وهي المنطقة المأهولة بالسكان نسبياً لتوفر سبل الحياة فيها من ناحية، واتخاذ القبائل البدوية من هذه الأضرحة وما حولها مناطق استقرار تجمعت فيها وأصبحت تمتهن حرفة الزراعة إلى جانب تربية الماشية، الأمر الذي ساعدها على تحقيق حياة أفضل، وقد شجع الولاة العثمانيون هذه الظاهرة حتى يتسنى لهم السيطرة على السكان من ناحية، والحصول على رسوم الجباية بسهولة من ناحية أخرى.

لقد ساهمت الزوايا والمساجد وخصوصاً تلك التي اتخذت قرب أضرحة الأولياء في نشر الأمن والطمأنينة بين السكان، وعابري السبيل، إذ لا يمكن انتهاك حرمتها بأية حال-حتى ولو كان من الحاكم نفسه- خوفاً من انتقام هذا الولي[74]. بل ذهب بعض الأولياء وحفدتهم من بعدهم إلى أبعد من ذلك، عندما ألزموا بعض الأفراد

70- انظر: محمد مخلوف، المصدر السابق ذكره، ص 82 -89

71- أبوسالم العياشي، الرحلة العياشية، طبعة فاس، طبعة حجرية بخط مغربي، بدون تاريخ، ص 65 -96

72- عبدالله محمد التيجاني: رحلة التيجاني، تحقيق حسن حسن عبدالوهاب، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، 1981 م، ص 284

73- عبدالسلام بن عثمان التاجوري، الإشارات لبعض ما بطرابلس الغرب من المزارات، مكتبة النجاح بدون تاريخ.

74- الفرد بيل، المرجع السابق ذكره، ص 421

كي يرجعوا الأشياء التي اغتصبوها(75).

إن الأوضاع السياسية والثقافية التي سادت في (ليبيا) العثمانية قد ساهمت في ترسيخ تلك الصبغة التقديسية للأولياء والصالحين تحت إشراف الطرق الصوفية، ومباركتهم لأعمال العامة مثل تقبيل القبور، ووضع اليد على القبر ومسح الوجه(76) إلى غير ذلك من الأعمال المنافية للدين الإسلامي وتعاليمه السمحة.

ونظراً لمكانة الطرق الصوفية في المجتمعات الإسلامية عامة فقد نجح الاستعمار الأوروبي الحديث في تسخير بعضها لخدمة أغراضه، فعلى سبيل المثال ذكر ديبون وكوثلاني في كتابهما عن الطرقية في معرض الحديث عن الاحتلال الفرنسي للمناطق الداخلية في الجزائر أنه « بدون مساعدة مقدم تيماسين ونفوذه لم يكن في إمكاننا احتلال مدينة بسكرة. وبدون التيجانية ... لم تخضع منطقة الأربعاء قرب مدينة الجزائر لنا » (77) وفي ليبيا نجح الإيطاليون في تجنيد العديد من الشخصيات الإسلامية المعروفة في عصرها، ليس في ليبيا فحسب بل حتى من علماء الأزهر. ففي سنة 1936م قام شيخ رواق الجبارتة بزيارة طرابلس وبرقة بدعوة من الحكومة الإيطالية حيث نزل ضيفاً عزيزاً عليها، مقابل قيامه بتحسين صورة ايطاليا أمام الرأي العام الإسلامي وإظهار اهتمامها بالإسلام والمسلمين، والتستر على جرائمها في إبادة الشعب الليبي.

وعلى أي حال فإن هذا الاستغلال السياسي للطرق الصوفية ورموزها لم يكن حكراً على المستعمر الخارجي فقط، بل حتى الأنظمة الإسلامية السياسية اليوم تشجع هذه الظواهر مادامت ترضي العامة وتسكن الآم الفقر والحرمان والتهميش لديها.

خلاصة القول

لقد عاش الشيخ عبد السلام الأسمر الفيتوري خلال فترة تشرذم وانهزامية سياسية تعرضت البلاد خلالها لهجوم خارجي، وتراجع ثقافي إسلامي سادت فيها الأوهام

75- روبار برنشفيك، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، تعريب حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1988، ج2، ص 354

76- إسماعيل العربي المرجع السابق ذكره، ص31

77- انظر: الشيخ محمد نور بكر (شيخ رواق الجبارتة بالأزهر)، ايطاليا في مستعمراتها، مطبعة الإخاء، بدون تاريخ، ص 4/ 35

والخـرافات الـتي ضـخمتها العامـة ونـسجت حولها مختلف الحكايات والأساطير، وقد اسـتغل العثمانيون هذه الأوضاع الصوفية وسخروها لخدمة أغراضهم، كما استغلها فيما بعد الاستعمار الإنجليزي والفرنسي والإيطالي، وكذلك بعض الأنظمة الإسلامية السياسية الـيوم والهـدف واحـد. فهـل مـن صـحوة إسـلامية تعـيد تقـيـيم الماضـي مـن اجـل بناء المستقبل؟.